الضمير

تعريفه . الآراء فيه . امكان تربيته . درجاته

الإنسان : مادة . وروح .

أما المادة . فهى تلك التى تراها تتألف من : يدين . ورجلين . وعينين ولسانا . وشفتين . إلى آخر ماتراه من أجزاء هذه المادة التى يتكون منها هذا الانسان « الخارجى » الذى يأكل ، ويشرب ، ويمرض ، ثم يموت ، ويفنى ، فيستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

وأما الروح فمن أمر ربى لاتراها ، ولكن بآثارها تشعر بكل مايؤلف « كينونتها » داخل نفسك . ولنصطلح على تسميتها بانسان « داخلى » .

لكن : إذا كان ذلك الإنسان « الخارجى » يتألف مما ترى من أجزاء فمِمَّ يتألف هذا الانسان « الداخلى » ؟

إنه يتألف من : « شهوات » و « انفعالات » و « شعور » ومن جزء آخر له الرياسة العليا على هذه الأجزاء كلها . ذلك هو « الضمير »

فالضمير هو الرئيس الأعلى ، أو ينبغى أن تكون له الرياسة العليا المطلقة على كل هذه الأجزاء التى يتألف منها هذا الإنسان « الداخلى » .

والإنسان الذى لايقدم هذا الجزء الفاضل — الضمير — على سائر أجزاء طبيعته . أو الذى يجعله يَحكم ويُرشد أحياناً فقط ، وتبعاً للظروف والأحوال . هذا الانسان لايتمشى فى أفعاله مع تأليف طبيعة الانسان

« الداخلى » . هذه الطبيعة التى تقتضى أن نَعْرض سيرتها كلَّها على تلك « الرياسة » . وأن تنتظر أوامرها ، وأن ننفذ على أنفسنا سلطتها ، وأن نجعل موافقتها هى شغلنا الشاغل . وإنَّ هذا لهو شغل العاعل الأخلاقى كله ليس إلا .

فالضمير إحساس ، والضمير قوة من غريب أمرها أنها تجمع بين هذه السلطات الثلاث : السلطة التشريعية . والسلطة التنفيذية . والسلطة القضائية .

ولا يَعْرف صاحب « الضمير » شيئاً من الأشياء أتقن من معرفته خميره على هذا النحو . ولنوضح ذلك بمثال :

قد يستفزك إنسان مثلا بكلمة تُخرجك عن وَعْيك ، فتضربه بيدك أو تَرْكله برجلك ، أو تنفيه إلى دار نازحة فى مكان سحيق ، وبعد أن تثوب إلى رشدك ، وتجلس وحدك تسمع فى أعماق نفسك صوتاً يسألك :

لماذا كل هذا ؟ أين الحلم ؟ وأين الرحمة ؟ وأين سعة الصدر ؟ وما الفرق بينك وبين الجاهل الذى لايستطيع أن يحكم نفسَه ؟ إلى آخر ماتسمعه فى مثل هذه الحال من أسئلة . ثم عقيب ذلك تسمعه هو نفسه يسألك أسئلة لاتسير مع هذا الإتجاه ، بل فى اتجاه آخر تسير . تسمعه يقول :

إنه يستحق هذه الضربة ، أو هذه الركلة ، أو هذا النفى ، لأنه من طينة يطفيها الحلم ، ويبطرها التسامح ، ويضرها سعة الصدر ، فما فعلتُه حسن ، وما أقدمتُ عليه هو الصحيح .

تسمع هذين الرأيين المتباينين كمن يسمع محاميين اثنين فى قضية واحدة :

أمّا أحدهما فيثبت التهمة ، وأما الآخر فينفيها ، أو أحدهما يبرىء المتهم والثانى يدينه .

وفى النهاية يصدر الحكم إما لك ، وإما عليك . هذا الصوت الذى تسمعه فى قرارة نفسك إذا نظرت إليه من ناحية أنه يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الصواب والخطأ والحق والباطل ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « مشترع » أو « سلطة تشريعية » .

وإذا نظرت إليه من ناحية أنه يحكم بالحق بين قواك ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « قاض » أو « سلطه قضائية » .

وإذا نظرت إليه من ناحية أنه يسرك ، أو يؤلمك : يسرك بنتيجة الفعل الحسن ، ويؤلمك بنتيجة الفعل الباطل ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « منفذ » أو « سلطة تنفيذية » .

وقد يكون كذلك هذا الصوت « شاكيا » أو « شاهدا » « زاجراً » أو « واعظاً » . وعلى جملة من القول فهو مركز التوجيه فى الإنسان .

هذا الصوت الذى تسمعه قائماً فى نفسك على هذا النحو ، مستقرا فى عقلك على هذا الوضع ، كامناً فى شخصيتك على هذه الصورة ، هذا الصوت هو « الضمير » .

وإذا عرفت أن المحكمة تتألف من : « قاض » و « محام » و « مُدَّع » و « شاهد » و « منفذ » إلى آخر ما يلزم للمحكمة : إذا عرفت هذا فأنك تستطيع أن تقول فى تعريفه : إن الضمير هو « محكمة كبرى ترجع إليها كل أعمال الانسان الخارجية » .

هذه المحكمة قائمة فى النفس الإنسانية على ذلك الوضع ، وهذه المحكمة يشعر بها كل إنسان صغيراً كان أم كبيراً عالما أم جاهلا. ذكيا أم غبيا فهى من الأمور المشاهدة لا تحتاج إلى برهان . هذا هو الضمير وهو أول حاكم يسألك ، وأول قاض يقضى عليك .

و « الضمير » وليد « الاجتماعية يعنى لو فرضنا أن ابن آدم لم يُخلق إنسانا « اجتماعيا » لما كان هناك « ضمير » . فالضمير ابن الاجتماعية ، منها نشأ ، وإليها يعمل .

وأنت فى هذه الحياة التى تحياها بين الناس لك شخصيتان إثنتان .

١ — شخصية ذاتية .

٢ — وشخصية قومية .

وأنت بمقتضى شخصيتك القومية ملزم بأن تجعل « سلوكك » مطابقا لمصلحة الجماعة لأن الجماعة هى التى تحافظ على حياتك ، وهى التى تقدم لك ما تحتاج إليه . وهى التى تمدك بوسائل الحرية ، فإذا تمتعت فى الجماعة بأمنك، وقوتك . وحريتك ، كان هذا دليلا على رقى الجماعة وصلاحيتها . وإذا فقدت فى الجماعة أمنك ، وأضعت فيها قوتك ، وعشت فيها خائفا قلقا مضطربا فهى جماعة فى حاجة ملحة إلى أن تفتح عينيها على أن تحقق لأفرادها وسائل الحياة الصحيحة .

وإذا كان الضمير محكمة تنظر أعمالك الخارجية ، وكان الضمير وليد « الاجتماعية » فهل ولد هذا الضمير كحاسة فطرية كالعين ، أو الأذن مثلا . على معنى أنك تستطيع أن تميز بفطرتك بين الحق والباطل ، وتفرق بين الخطأ

والصواب ، كما تميز العين بين الألوان ، وتفرق الأذن بين الأنغام ، أو هو قوة مكتسبة على معنى أنه ثمرة تخلقها التربية ؟

يقول « جان جاك روسو » : « لا أحد قد كان عَلَّم كلب رسو أن يطارد الخُلْد — حيوان — ويقتله بينما هو لا يأكله » يريد بذلك أن هذا الحيوان يملك غريزة فطرية توجهه وتقوده نحو أى فعل يريد ، وليس الكلب فحسب ، بل أفراد الحيوان كذلك تملك مثل هذه الغريزة ، فمثلا ترى القطة تأتى « فتخطف » من أمامك شيئا ثم تجرى به . لماذا ؟ لأنها تملك غريزة فطرية بها أحست أنها قد فعلت ذنبا .

ومن هنا يرى « جان جاك روسو » أن ابن آدم مزود بمثل تلك الغريزة الفطرية كما هو الشأن فى الحيوان ، وأنه بهذه الغريزة الإلهية يفرق بين الخير والشر كما تفرق العين بين الأبيض والأسود ، ولا غرابة فى ذلك من الإنسان ذى العقل مادام الحيوان الذى لم يُرزق عقلا يفرق بين الذنب وغير الذنب وبين الإثم وغير الإثم .

هذه الغريزة الفطرية ، أو هذه البصيرة التى بها — يعرف الإنسان طريق الخير والشر ، هى : « الضمير » وهذا الضمير يحمله الانسان منذ ولادته ، وهو ثقة لا يُخطىء ، وهو خيِّرٌ دائما . وهو الوسيلة الوحيدة للهداية فى الطبيعة الانسانية .

هكذا يقرر « روسو » ويقرر معه « كانت » أن الضمير « هاد موثوق به ومعصوم من الخطأ »[1] وما عليك إذا أردت أن تسلك سلوكا خيرا

---

(١) عن المشكلة الاخلاقية والفلاسفة تأليف « أندريه كريسون » ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والاستاذ أبو بكر ذكرى .

إلا أن تستنصحه ، فإنه يوحى إليك الواجب دون تشريع .

ويترتب على هذا الرأى فى « الضمير » أنه لا حاجة لا إلى العلم ولا إلى الفلسفة لكى تكون حكيما وفاضلا . لأنك تُدرك الخير بفطرتك ، أو لأنك تُلهمَ الطَّيِّبَ بأحساس يوحَى إليك .

وكل امرىء يُهمِل نصائح ضميره يَحكم على نفسه با « التعاسة » ولن يتيسر له الصفاء ، ولا الراحة ، ولا الرضا الأخلاقى . وإن أشد الأشياء على الانسان هو أن يحكم على نفسه حكما يتبعه عقابه لذات نفسه بالنفور الباطنى من نفسه ، لأن عقاب الضمير يصيب الانسان فى أصل انتباهه إلى نفسه ، لا فى شيء عارض : والمال لا يُخفف ألم الضمير ، والمتاع ، أو الجاه كذلك لا يخفف من ألم الضمير شيئاً وإنما الذى يُخفف ألمه شيء واحد ، وهو أن توافق طبيعته ، وما طبيعتُه إلا الفضيلة . وإذا كانت الفضيلةُ طبيعةَ الضمير ، فأن أشد الأشياء مضادةً لهذه الطبيعة هى الرذيلة . هذا رأى .

ويقابل هذا الرأى الذى يقول : إن الضمير حاسة فطرية تفرق بين الخير والشر كما تفرق العين بين الأبيض والأسود ، يقابله رأى آخر يقول : بل هو « قوة مكتسبه ، وثمرة تخلقها التربية » .

وسَنَد هذا الرأى أن الناس فى كل العصور ، وفى جميع الأقطار يستشيرون ضمائرهم ، ولكنها لا تُسمعهم جميعاً لحنا واحداً ، إذ أن مايظهر عَدْلا وخَيْرا لبعض النفوس المخلصه ، فى عصر خاص ، لا يظهر عدلا ولا خيرا لنفوس أخرى هى أيضاً مخلصة ، ولكنها عاشت فى عصر آخر ،

أو مكان آخر . فلو كان الضمير معصوما بطبيعته لأرشد الناس جميعاً إلى طريق الهدى ، وجنّبهم طريق الضلال وعلى رأس من يقول بهذا الرأى « مونتينى »(١) و « لوك »(٢) و « ديدرو »(٣). هؤلاء وغيرهم يهزأون من دعوى عصمة الضمير(٤). وأمثلتهم على ذلك كثيرة عند ما توازن بين أحوال الضمير ، خلال مختلف العصور : منها :

١ — فى العصور القديمة كان نظام الرق مشروعا حتى أن « أرسطوطاليس » وقلبه من أشرف القلوب ، وعقله من أقوى العقول كان يبيحه فيقول فى كتابه « السياسة » ص ١٠٣ : « ومهما يكن من شىء فَبَيِّن « أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين بالطبع عبيد ، وأن الرق فى حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو عادل »

٢ — كانت القوانين الرومانية القديمة تجعل من المرأة ، والأطفال ملكا للزوج كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً ، ولهذا كان للأب من بين الحقوق الأخرى ، الحق فى أن يعرض ابنته المولوده حديثا فى السوق العام إذا كانت له بنت أخرى(٥).

---

(١) كاتب وأخلاقى فرنسى عاش ما بين ١٥٣٣ — ١٥٩٢ م

(٢) أنظر « حاشيته » ص١٢٦ بند « ٦ » من هذا الكتاب

(٣) كاتب وفيلسوف فرنسى من مفكرى القرن الثامن عشر الميلادى . كان أبوه تاجر سكاكين صغير ولكن حظه وجده كانا عاملين فى أن يلمع اسمه بين مشاهير ذلك القرن ، وأن يكون زعيم حركة فكرية عظيمة .

(٤) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ٢٣

(٥) المصدق السابق

٣ ــ كانت المرأة المتزوجة فى « انجلند » لا يمكنها أن تتصرف البتة فى مالها الخاص ولزوجها أن يتصرف فى هذا المال بما يشاء كما يشاء ، ولا يحول دون ذلك حائل . وقبل العهد « الفكتورى » بقليل جداً باع رجل زوجه فى « سمثفيلد » وكان يقودها كالدابة ، وفى عنقها خطام[1] فهل يمكن ذلك الآن ؟ ! ! »

٤ ــ كان ضمير العربى فيما مضى يُبيح له أن يقتل ابنته ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ » « الانعام ، آيه ١٤٠ » .

ويقول : « وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » (الانعام ، آية ١٥١) .

ويقول : « وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْئاً كَبِيراً » (الاسراء ، آية ٣١)

٥ ــ كانت « الزانية » فى بعض ضواحى روسيا تعاقب بأن يربطها الفلاحون عارية تماماً إلى مركبة يجرها بغل عجوز ، يعتليها الزوج المخدوع حاملا سوطاً طويلا يضرب بها الحيوان مرة والمرأة مرة أخرى بصورة منتظمة ، فيتفجر الدم منها ، وهى تسير مجهدة مرهقة مطاطأة الرأس ، ووراءها حشد من الرجال والنساء والأطفال يضحكون لما يرون ، ويتمتعون بتسلية لا تسنح فى كل حين ، وهم لا ينقطعون عن توجيه الشتائم

---

(١) من مقال للكاتب الروائى الاشهر « شارلس جارفس » عن كتاب المرأة والسياسة تعريب محمد عبد العزيز الصدر .

وقارص الكلام إلى الزوجة الخائنة ، واللكمات ، وكتل الطين ، أو الحجارة من وقت لآخر ، فإذا وقعت أرضا انهال الزوج عليها بالسوط دون رحمة أو شفقة حتى تنهض ، وتعاود المسير من جديد . هكذا كانوا يعاقبون خيانة المرأة ، أما خيانة الرجل فلا عقاب عليها [1] « وهذا ضمير » .

وتكفى هذه الأمثلة دليلا على اختلاف « الضمير » باختلاف الزمان والمكان بل إنك لترى من مظاهر اختلاف الضمير فى الجماعة الواحدة المتحضرة ما يكفى لتأييد دعوى من يهزأ بعصمة الضمير ، فهاهو ذا « الرأسمالى » الذى يدافع عن نظام « الميراث » و « الشيوعى » الذى يهاجم هذا النظام . وهاهو ذا « الديمقراطى » — الديمقراطية معناها حكم الشعب الصالح — الذى يقرر ضرورة الانتخاب العام ، و « الأرستقراطى — الاستقراطية معناها حكم « الممتازين » أو « الأخيار » من الناس — الذى يعلن عدم ملاءمة هذا النظام . . . أليس فى هذه المظاهر المختلفة فى الجماعة الواحدة ، وفى الزمن الواحد ما يكفى دليلا على فساد رأى من يقول : بأن الضمير خيرٌ دائما ، وأنه معصوم أبداً ؟ ! !

وهناك رأى ثالث لفريق من الفلاسفة الماديين يبتعد البعد كلَّه عن هذين الرأيين المتقدمين : ذلك أن هذين الرأيين يتفقان فى الاعتراف بالضمير ، وإنما يختلفان فقط فى : هل هو « فطرى » أو « مكتسب » أما هذا الرأى الثالث فإنه ينكر « الضمير » إنكارا من أصله ، فليس هناك ـ عندهم ـ

---

(١) مقدمة كتاب « الأم » للأديب « الروسى » « مكسيم جوركى »
(١) سلسلة عيون الادب العالمى

شيء اسمه « ضمير » وليس هناك شيء إسمه « فضيلة » وليست هناك قيم أخلاقية، وليست الأخلاق إلا «اختراع الضعفاء لكي يُقَيِّدوا بها « سلطان الأقوياء » ولذلك ينادون بأن نكون حرباً على « الأخلاق » .

يقولون : يجب أن نحطم هذين القيدين تحطيما : قيد « العادل » وقيد « الظالم » حسبما جاء فى القانون الموضوع ، ولنتخطَّ فى نظرنا إلى الأشياء ذلك « الخير » ، وذلك «الشر» يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة . يجب أن نكون كذلك فى بنيتنا الطبيعية ،وفى قوتنا العقلية ، وفى مزايانا الخلقية . يجب أن يكون لنا من الجسارة ما به نحيا حياة حرة سافرة ، وفى وضح النهار ، وإذا ما اقتضى ذلك أن نسير فوق طريق من الجماجم فعلينا أن نسحقها بأقدامنا دون أن يتحرك ضميرنا بملام. يجب أن تكون لنا « قلوب قاسية » . يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل ، أو ندم فى وجه مصطلحات العالم ، ومصطلحات أخلاق القطيع . يجب أن نرسلها من البوق النشوان بخمرة النصر ، وحميا الكبرياء .

وعلى هذا فلن تكون القوانين الأخلاقية إلا مبتدعات جديرة بالإزدراء هى وأصحابها الذين وضعوها . ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من « قصاصات أوراق » . إن الإرادة الوحيدة الصحيحة إنما هى « إرادة القوة » ، وإن الحق الحقيق إنما هو الذى يعلو ولا يُعلى عليه . إن القوة هى كل شيء ، وهى وحدها التى تقرر الحق [1]

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ٣٢ ، ٣٣ .

وزعماء هذا الرأى الثالث «كليسكليس»[1] قديماً، و «نيتشه»[2] حديثاً.

هذه آراء ثلاثة فى الضمير. فما موقف الإسلام منها؟ أينكر الإسلام الضمير كالرأى الأخير. أم يعترف به كالرأيين الأولين. وإذا كان يعترف به فهل هو فى نظر الإسلام حاسة فطرية أو قوة مكتسبة؟.

إن الإسلام لا ينكر «الضمير» بل يعترف به. فيقول تعالى فى كتابه العزيز: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ» (سورة ق آية ١٦).

ويقول: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى» (سورة الأنعام ١٥٢).

ويقول: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ

---

(١) أحد مشاهير «السوفسطائيين» وصاحب مذهب «القوة».

(٢) هو: «فردريك نيتشه» فيلسوف ألمانى «١٨٤٤ — ١٩٠٠ م» كان أديباً وكاتباً فى الأخلاق، وكان يؤمن بمذهب النشوء والارتقاء، وكان من آرائه فى الأخلاق: «أن آراءنا فى الفضائل والواجبات يجب أن تنقح من آن لآخر على حسب تغير الأحوال المحيطة بالناس» وقال: إن الفضائل المسيحية كالوداعة، والتواضع، والإحسان، قومت بأكثر مما تستحق. ولقب الأخلاقية المسيحية بأخلاقية «العبيد» وقال: يجب أن تعوض هذه الأخلاقية بأخلاقية السادة. وهذه الأخلاقية العالية يجب أن تكون فوق القانون. والمثل الأعلى للانسان عنده إنسان له الحرية التامة فى الكفاح ليبقى. يبحث عن لذته، ومابه قوته، ولا يعرف الشفقة.

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » (سورة الأعراف ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢) .

ألست ترى — على ضوء ما تقدم — أن « الوَسْوسة » و « النَّزْغ » و « الأمر بالعدل » كل هذه الأشياء من طبيعة عمل « الضمير » ؟ .

إن صوت الضمير عند ما يهتف بك قائلا : « كن عادلا » « هذب نفسك » « اضبط نفسك » « احترم الآخرين » « ساعدهم » فإن هاتيك الأوامر تكون دليلا على أن « الضمير » موجود بالعمل ، وأنه يُؤدى عمله . وذلك ما يشير إليه القرآن الكريم فى هذه الآيات البينات .

أما « عصمة » الضمير فهذه مسألة ينكرها الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة . منها قوله تعالى : « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ » (سورة النساء ١١١) ومنها قوله : « مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » (سورة الاسراء ١٥) وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » (سورة المائدة ١٠٥) وغير ذلك كثير .

وأما أن « الضمير » حاسة فطرية ، أو قوة مكتسبة فأن حديث رسول الله صلوات الله عليه يؤيد الرأى الأول فلقد ورد أن وابصة بن معبد [1] .

(١) صحابى سكن الكوفة ثم تحول إلى « الرقة » فأقام بها إلى أن مات ، وقبره عند منارة المسجد الجامع بالرافقة ، وكان له بالرقة عقب من ولده عبد الرحمن بن صخر قاضى الرقة أيام هارون الرشيد . روى عن رسول الله ، وروى عنه ابناه عمرو ، وسالم ، والشعبي ، وزياد بن أبى الجعد وغيرهم .

ذهب إلى رسول الله . فقال له صلوات الله عليه : جئت تسأل عن البر ؟ فقال له وابصه : نعم يا رسول الله . فقال : « البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك . أفلست ترى فى هذا ما يؤيد أن الضمير قوة فطرية ؟

وسواء أكان الضمير « حاسة فطرية » أم « قوة مكتسبه » فأنه ليس بمعصوم . عن الشر « الأخلاقى » ـ الشر « الطبيعى » كالذى تعلن وجودَه الظواهر الطبيعية لا يتعلق به الحكم الأخلاقى ـ لذلك وجب أن نُذَكِّرَ بكلمة « أرسطوطاليس المشهورة التى قالها فى كتابه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ج ١ ص ٢٢٩ — : « ليس لأجل العلم بما هى الفضيلة أن أوغلنا فى هذه الأبحاث ، بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخياراً » .

نعم . ولكن : كيف نصير فضلاء وأخيارا ؟ أو هل يمكن تربية الضمير لنكون فضلاء وأخياراً ؟ هذه هى المسألة ، وهذه هى النتيجة التى قدمنا لها بتلك المقدمات الطويلة العريضة . وهذه هى المسألة التى يهدف إليها كل مشتغل بالأخلاق قديما وحديثاً . وكلٌّ يستهدى مذهبه فى « تعبيد » الطريق الذى نسلكه كى نصير فضلاء وأخياراً .

أما « أبيقور » ذلك الذى يرى أن « الخير » المطلق هو اللذه . و « الشر » المحض هو الألم فيرى أن عمل الأخلاق ينحصر فى تعليم بنى البشر فن الحصول على اللذة وتحاشى الألم . لذلك هو يقول لك : إذا أردت التخلص من الألم فما عليك إلا أن تفعل شيئا واحداً . ذلك هو أن « تنظم رغباتك » وتسهيلا عليك فى رياضة نفسك على تنظيم الرغبات يبين لك أنها على ثلاثة أنواع :

١ — رغبات طبيعية ضرورية مثل : الأكل . والشرب . والنوم .

٢ — ورغبات طبيعية وليست بضروريه : كالرغبة الجنسية .

٣ — ورغبات ليست بطبيعية وليست بضرورية : مثل : الرغبة فى البخل ، وفى الطموح أما الأولى فلا يمكن أن تستغنى عنهـــا مطلقاً وإلا تعرضت للموت .

وأما الثانية فمن العبث أن يتحاشاها الإنسان تحاشياً تاماً ، وله عند سنوح الفرصة أن يُرضى بعضها ، فأن ذلك لا يخرجه عن أن يكون حكيما .

وأما الثالثة : وهى التى ليست بطبيعية ، وليست بضرورية فيقول « أبيقور » بشأنها : « إن من الجنون أن تريد إرضاءها »[1] ولماذا ؟ لأنها كثيرة لا تحصى ، غالية لا ترضى ، متعطشة لا تروى إنها تتطلب من المتاعب ما لا يكاد ينتهى ، وما هى إلا تغرير دائم ، وخداع مستمر ، وليس على الحكيم إلا أن يعدل عنها عدولا تاما .

وأما « سقراط » فمنهاجه فى تربية الضمير يتلخص فى أن تروض نفسك على « التبصر » ذلك التبصر الذى هو مرد الفضائل جميعها عند سقراط ، وعند أبيقور ، وغيرهم ، أو بعبارة أخرى أن تقوى عقلك ضد شهواتك .

وإن « التبصر » لا يريد منك إلا أن تسلك الطريق الذى يوصلك إلى « السعادة » بأن تسير على « العدل » . و « الاعتدال » و « الشجاعة و « الإخلاص » ولقد ضرب « سقراط » لذلك المثل الأعلى فى « الشجاعة » وفى « الإخلاص » للقانون بأن قابل الموت بصدر رحب ، ورفض أن

---

(١) المشكلة الاخلاقية ص ٧٢

يهرب من السجن حتى يموت عن نفسه راضياً . فضرب بموته أقوى الأمثال

قيل له مرة : مارأيناك قط مغموما ؟ فقال : لأنه ليس لى شيء متى ضاع منى وعدوته اغتممت عليه ، وكانت هذه الكلمة : « من غلب عقله هواه افتضح » كانت هذه الكلمة تلازمه أينما حل وسار ذلك بأنه قد سجلها على خاتمه بنقشها عليه .

وأما « أرسطو طاليس » فيرسم منهاجه فى كتابه « الاخلاق » ج ١ ص ٢٣٩ يقول : إن الانسان يصير « عادلا » بأتيانه أفعالا عادلة . و « معتدلا » بأتيانه أفعالا معتدلة . وأنه إذا كان الانسان لايمارس البتة أفعالا من هذا الجنس فمن المحال عليه أيا كان أن يصير فاضلا » ثم يحمل حملة شعواء على أولئك الذين يقولون مالا يفعلو فيقول : « ولكن عامة الناس لا يمارسون هذه الأفعال وبالتجائهم إلى أقوال فارغة يظنون أنهم يفلسفون ويتخيلون أنهم بهذه الطريقة يحصلون فضائل حقيقية . ذلك هو على التقريب مايفعله أولئك المرضى الذين يستمعون بعناية للأطباء ، ولكن لايفعلون شيئاً مما يؤمرون . كما أن هؤلاء لا يكادون يكونون أصحاء الأجسام بأن يعالجوها على هذه الطريقة . كذلك الآخرون لن يكونوا أصحاء النفوس بأن يفلسفوا على هذه الطريقة . »

و « أرسطو » لا يسمى فضلاء إلا الناس الذين يأتون فى العادة أفعال الفضيلة عالمين ماذا يفعلون . أو بعبارة أخرى يشترط الشروط الآتية فيمن يسميه فاضلا :

١ — أن يعلم ماذا يفعل .

٢ — أن يريده بالاختيار التام ، وأن يريد الأفعال التى ينتجها لذاتها .

٣ — أن يفعل الفعل بتصميم ثابت لا يتزعزع على أن لا يفعل خلافا لذلك البتة .

هذه آراء ثلاثه من كبار فلاسفة الأخلاق يرون أن الضمير الإنسانى يمكن تربيته ، بأن تروض نفسك بالفعل على ضوء ما يقدمونه من نصيحة .

وإنى ألاحظ أن الرأى الأول — رأى الأبيقوريين — وإن صلح — على ضوء رأيه فى تنظيم الرغبات — لإيجاد « مثل » عليا فليس يصلح لمسايرة « التقدم » لأنه يقتل فى الفرد روح «الطموح» لأنه — كما رأينا — يشير بقتل الرغبات التى ليست بطبيعية وليست بضرورية .

وخير ما يربى عليه الضمير هو « الاعتدال » وهذا هو ما يشير به الإسلام فى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة ١٤٣) .

ولأستاذى «أحمد لطفى السيد» فى هذا الباب « وصف» للطبع الإنسانى ، فيه « إرشاد » يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

يقول : صَعْبٌ على النفس الإنسانية أن تعرف نفسها حقيقة ، وأن تضع نفسها من هذا الوجود فى مكانها من غير ضعة ولا اعتلاء . من غير تفريط ، ولا إفراط . فأن غاية الحكمة أن تعرف نفسك . وأن النفس الإنسانيه قد تتغافل عن درجتها من الوجود . فتنزل عما يليق بها إلى مواطن الهوان ، والخسة . وقد تتعالى عن مركزها الطبيعى أو العرفى ، فتكون نفسها كاذبة ، وتفقد بكذبها ثقة غيرها من النفوس ، وجاذبيتها نحوها . فتَعرَّفْ نفسك بآلات القياس العلمية ، وارْبَأْ بها عن

الضعه ، وانزل بها عن الادعاء ، وابتـــغ بين ذلك وسطاً تألف الناس ويألفك الناس ، فأن المؤمن آلف مألوف (١)

اربأ بنفسك عن الضعة ، وأنزل بها عن الأدعاء ، وابتغ بين ذلك وسطا تألف الناس ويألفك الناس . هذا هو الطريق العملى الذى يرسمه مربى الجبلين وعميد الفلسفة فى الشرق « احمد لطفى السيد » لمن يريد أن يكون « إنساناً » وهذه الكلمة فوق أنها ترسم الخطوط الأولى لذلك الإنسان ، فإنها تشير إلى درجات الناس وبالتالى إلى درجات للضمير الإنسانى . فى هذه الحياه .

وقبل أن نبين هذه الدرجات مأخوذة من واقع الأمر على مسرح هذه الدنيا نشير إلى أن الذين يقولون : « إن الضمير هاد موثوق به ومعصوم من الخطأ » يتبع رأيهم هذا « طبعا » أن الضمير لا يمكن تربيته ، أو هو لا يحتاج لتربية ولا تهذيب لأنه لا يضل ولا يغوى .

ويجاوب « كانت » على من يَعترض بهذه « المخازى » التى تراها تمثل على مسرح بنى البشر يجاوب بأن « الإرادة » هى مناط الخيرية والشرية لا « الضمير » فـوَحى الضمير خير دائما . إنما القوة التى تنفذ وحى الضمير هى « الملعونة » حينما تكون شريرة سيئة التكوين . .

وسواء أكان « الضمير » هو الذى يوحى بالشر ، أم كانت الإرادة أم الشهوة ، فان الضمير يتفاوت كما يتفاوت العقل بين الناس .

---

(١) المنتخبات ح ١ ص ١٠٩

درجات الضمير

ترى العقل بين الناس يتفاوت ، فهذا ذكى ، وهذا غبى . وذاك على درجة لا بأس بها فى إدراكه للأشياء ، وتصريفه لأمور نفسه والناس . فهل شأن الضمير كشأن العقل فى هذه الناحية ، على معنى أن الضمير يتفاوت بين الناس كما يتفاوت العقل ؟ وإذا كان فما مظاهر هذا التفاوت ؟ وهل يمكن أن يسلم الانسان سلامة مطلقة من تأنيب ضميره فيعيش عيشة إنسان « نذل » بلا ضمير دائما ، كما ترى من يتجرد من مظاهر العقل ، فيعيش عيشة إنسان « أبله » ؟ وأخيراً فهل المجتمع هو الذى يصنع الضمائر ، أو ماذا ؟

ذلك ما سنحاول أن نقف عليه فى هذا الباب . وما دمنا نُشَبِّه الضمير بالعقل فى هذه الناحية ، وقد عرفنا ما هو الضمير ، فقد يكون من الحسن أن نقدم لذلك بكلمة عن العقل .

كلمة « عقل » مأخوذة من عقال البعير لأنه يمنع ذوى العقول من العدول عن سواء السبيل . وتُطلق ويراد بها مدلولات كثيرة : فيراد بها — فى العَروض — حذف الحرف الخامس المتحرك من « مُفَاعَلَتن » وهى اللام ، ويُسمى الذى وقع فيه ذلك الحذف « معقولا » وتُطلق ، ويراد بها — فى الفقه — الدِّية لأنها تعقل أى تمنع وتمسك الدماء من أن تُسفك ولذلك يسمونها « العاقلة » وتطلق — عند الحكماء — ويراد بها مدلولات كثيرة . منها : « ما يُعقل به حقائق الأشياء » ومنها أنه « جوهر مجرد عن المادة فى ذاته مقارن لها فى فعله » وهنا يقول « الجرجانى » فى تعريفاته :

إن هذا التعريف يشمل النفس الناطقة التي يشير اليها كل أحد بقوله : « أنا » وقيل في تعريف « العقل » : « انه قوة لهذه النفس » وهذا التعريف صريح في أن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة . وقالوا : ان الفاعل في التحقيق هو « النفس » و « العقل » آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة الى القاطع أو بمنزلة نور الشمس الى « العين » فكما أنك بنور الشمس تدرك المبصرات فكذلك بنور العقل تدرك المعقولات . وقيل : ان « العقل » و « النفس » و « الذهن » كل هذه أسماء لمسمى واحد . الا أنها سميت « عقلا » لكونها مدركة . وسميت « نفسا » لكونها متصرفه . وسميت « ذهنا » لكونها مستعدة للادراك .

ويقسمون « العقل » الى ثلاثة أقسام : « عقل بالملكة » . و « عقل بالفعل » . و « عقل مستفاد » : فالعقل بالملكة هو « علم بالضروريات، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات » والعقل بالفعل ، هو « أن تصير النظريات مخزونة عند القوة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد » والعقل المستفاد . هو « أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه » [1] .

وسواء نظرنا الى العقل من ناحية أنه « استعداد » لكسب المعلومات ، أو من ناحية أنه « جملة ما يجيء للإنسان من معلومات » سواء نظرنا اليه من هذه الناحية ، أم من تلك فانه « وجه » من وجوه النفس الإنسانية ، والضمير كذلك « وجه » من وجوهها . ولو تصورنا النفس بقطعة « نقود » مثلا فان وجه « العقل » مكتوب عليه « يميز الحق من الباطل » ووجه

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٠٢

« الضمير » مكتوب عليه « مركز التوجيه فى الانسان » وكما أن قطعة النقود لا تستطيع أن تَبْتَاع بها شيئا اذا كانت بوجه واحد ، فكذلك « النفس » الانسانية لا تستطيع أن تعمل عملا « أخلاقيا » الا بالاثنين معا « الضمير » و « العقل » .

واذا كان العقل يتفاوت بين :

ذكى يميز الحق من الباطل كمن يرى الألوان فى نور الشمس الساطعة ، وكمن يقطع بسكين مشحوذة .

وغبى كمن يرى الالوان فى ظلمة الليل البهيم .

وثالث لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء ، وانما كمن يرى الأشياء تحت السحب الداكنة ، وهو يلبس نظارة سوداء تضيف ظلمة الى ظلمة ، وتضع حجاباً فوق حجاب . اذا كان العقل يتفاوت بين هذه الثلاث ، فان الضمير كذلك ليتفاوت كما يتفاوت العقل بين مراتب ثلاث تُمَيِّزها أساليب الناس فى هذه الحياة .

١ — ضمير يوجه صاحبه توجيها خاطئا على معنى أن صاحبه لا تراه يعيش الا فى طباع عامية غليظة حتى تلاشى مركز التوجيه فيه أو كاد ، فهو لا يأمر الا بسوء ، ولا يوجه إلا الى سوء ، ولا يحلو له أن ينتقل الا من سوء الى سوء : على أمن الناس يعتدى ، ولقوتهم يغتصب ، وعلى حرياتهم تراه حربا عوانا . فى أعراض الناس يُتاجر ، ومن نشر السموم بينهم يأخذ قوته ، ولوطنه وقومه يدبر المكايد ما دام ذلك يعود عليه بنفع شخصى .

وصاحب هذا الضمير هو صاحب النفس الأمارة التى تميل الى الطبيعة البذيئة ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب الى الجهة السفلية فهى مأوى الشرور ، ومنبع الأخلاق الذميمة ، وهى التى يشير اليها القرآن الكريم فى قوله : « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » (يوسف ٥٣) وصاحب هذا الضمير هو ذلك الذى غلبت شهوتُه عقله ومن يصل الى هذه الدرجة تكون البهائم خيرا منه كما يقول الغزالى فى كتابه « مكاشفات القلوب » يقول ان الله تعالى خَلَق الخلق على ثلاثة ضروب :

خَلَق الملائكة وركّب فيهم العقل ، ولم يُركّب فيهم الشهوة .

وخَلَق البهائم وركب فيها الشهوة ولم يُركب فيها العقل .

وخَلَق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة فمن غَلبت شهوتُه عقلَه فالبهائم خيرٌ منه ، ومن غَلب عقلُه شهوتَه فهو خير من الملائكة (١)

ويعجبنى أن يُحَذِّر بعضُ الشعراء من مثل هذا الضمير فيقول :

انى ابتُليت بأربع ما سُلِّطوا ... الا لشدة شِقوتى وعنائى

ابليس والدنيا ونفسى والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائى

وأرى الهوى تدعو اليه خواطرى ... فى ظلمة الشهوات والآراء

ولخطر مثل هذا الضمير على النظام الاجتماعى جعل الاسلام جهاد النفس التى اختل فيها مركز التوجيه جعله هو الجهاد الأكبر . فالجهاد فى نظر الاسلام على ثلاثة أصناف :

---

(١) ص ١٣ ، ١٤

جهاد فى الحرب مع أعداء الحق وهو جهاد الظاهر كالذى فى قوله تعالى : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » (سورة المائدة آية ٥٤) .

وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن » (سورة النحل ١٢٥) .

وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذى فى قوله تعالى : « والذين جَاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (سورة العنكبوت ٦٩) وقوله صلوات الله عليه : « أفضل الجهاد جهاد النفس » .

وكان صحابة رسول الله إذا رجعوا من الحرب يقولون : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس .

وإنما سَمَّوا الجهاد مع الهوى والنفس أكبر لأن الجهاد معها أدْوَم ، بهاد الحرب فى سبيل الحق يكون فى وقت دون وقت . ولأن المحارب فى سبيل الحق يرى العدو ، والجهاد مع عدو يراه الإنسان أسهل من الجهاد مع عدو لا يراه . ولأنك إذا قتلك عدو الحق فلك « الشهادة » وإن قتلتك نفسك وَقَعْت فى عقوبة الرحمن ، ولذلك يقول الكتاب العزيز : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون » (سورة البقرة ٨١) .

لكن هل هذا الضمير يُخلق مع الإنسان خلقاً على هذا النحو ، أو هو إنما يَعْرض بعد ذلك على معنى أن ما يحيط بالإنسان هو الذى يوجده ؟ .

إن ما يحيط بالفرد من « عدل » و « ظلم » وغير عدل وظلم » هو الذى

يُؤثر فى الإنسان ويُكونه : « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (سورة النحل ٧٨) ولذلك يحرص الإسلام الحرص كله على أن يتخذ ألف تحوط وتحوط بارع حول ذلك النبات الصغير — النشء — الذى يشق طريقه الى الحياة . فأحاطه ، أو أمر بأن يحاط بكل ما من شأنه أن يجعله « إنساناً » : أحاطه بسياج من نظام فيه أقصى ما يمكن أن يكون لصالح الفرد والجماعة : فأمر بالعدل « وإِذَا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » (سورة الأنعام ١٥٢) .

وأمر بالتعاون : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ » (سورة المائدة ٢) وأمر بحسن « السلوك » : « وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوا مُبِيناً » (سورة الإسراء ٥٣) وأمر بالإصلاح بين الناس : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين » (سورة الحجرات ٩) وأمر بالاتحاد : « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا » (سورة آل عمران ١٠٣) وأمر بأداء الأمانة : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ » (سورة

البقرة ٢٨٣) إلى آخر ما أمر به الإسلام فى هذا البـــاب من « العفافة » و « الاستقامة » و « البشاشة » و « الدعة » و « سلامة القلب » و « صدق الطوية » و « الصدق » و « الصبر » و « النظافة » و « الطاعة » و « الإحصان » مما لو تمسك به مجتمع لساد . ويوم كان محمد بن عبدالله ، وخلفاؤه يشرفون على تنفيذ قواعد هذا النظام كان العالم الإسلامى عالما أخلاقياً على معنى أنه لم يكن هناك تناقض بين نتائج أفعال الأفراد وعقائدهم . فكر مثلا فى هذه القاعدة : « ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى .

وانظر كيف كانوا يخلصون فى تنفيذ هذه القاعدة التى توجه الناس الى « المساواة » بكل ما تحمله هذه الكلمة من مدلول .

وانظر الى عمر يحمل دقيقاً وسمناً فيلقى بشىء منها فى القدر ، ثم يصير ينفخ النار بفيه ، والدخان يتخلل لحيته حتى ينضج الطعام ولم يتركهم حتى لعبوا وضحكوا وناموا .

ثم أنظر الى شعور مثل أفراد هذه الأسرة بعد هذا الصنيع الجميل . أيمكن أن يحمل أحدهم ضغنا لهذا الوالى عمر ؟ عمر الذى يجيئه رسول قيصر يسأل عنه ليفاوضه فى شأن « صلح » فيجده نائما تحت شجرة فى العراء يتوسد حذاءه ، فيبهت من هذا الخليفة : خليفة المسلمين الذين دوخو كسرى ، ورجال قيصر ، وأنزلوهم من قلاعهم صاغرين ، فيقف على رأسه وهو نائم فيقول : « حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر » .

ان « الاخلاص » فى تنفيذ مثل هذه المبادىء الإنسانية كما كان يفعل

ابن الخطاب لهو الذى يوجد الضمير الحى الذى يوجه الإنسان نحو الخير الأعلى .

وان الإخلاص فى تنفيذ مثل هـــذه المبادىء الانسانية لهو الذى يوجد « المُثُل » العليا التى تدفع الأفراد الى السيطرة على تلك النفس الأمارة بالسوء .

وان الاخلاص فى تنفيذ مثل هذه المبادىء لهو الذى يدفع الأفراد فى سلوكهم لأن يسيروا على ضوء الأخلاق والدين ، وصدق رسول الله : « اثنان اذا صلحا صلحت الأمة واذا فسدا فسدت الأمة : « العلمـاء والأمراء » . ولست فى حاجة إلى القول : بأن المراد بالأمراء الحكام.

ان المحيط وليس المحيط الضيق الذى نعيش فيه ، بل المحيط الواسع ، أو البيئة بمعناها العـام هى التى تؤثر فى مركز التوجيه فى الانسان ، وهو الضمير .

واذا كان « أرسطوطاليس » أحد أساتذة الأخلاق الأكرمين ذلك الذى يرى أن « المبدأ الحق فى كل شىء انما هو الواقع » كان يقول : « ان أكثر النـاس على ما يظهر على الحقيقة عبيد يختارون بمحض ذوقهم عيشة البهائم »[1] .

فهل ياترى تغيرت هذه الحال ؟

يظهر أن مالاحظه « أرسطو » على الناس هو القاعدة دائما ولذلك

---

(١) ج ١ ص ١٧٧ « كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس » ترجمة أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد :

يقول القرآن الكريم « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » (الأنعام ١١٦) ولعل « مكيافللى » — ايطالى عاش فى القرن السادس عشر — إذن كان معذورا حين قال : « الناس بوجه عام منكرون للجميل ، متقلبون ، خونة ، جبناء طماعون ، وهم معك مادمت ناجحا ، ويبذلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ، ما لم تكن لك حاجة اليهم فأذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

ويذكرنى هذا بقول الشاعر العربى :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

وعلى كلٍّ فالضمير الآن فى « أزمة » نرجو له منها الخلاص . أما كيف ومتى تنفرج هذه الأزمة ، فهى فى حاجة الى صبر طويل ، وجهد مكين على شرط أن تهتدى نفوسنا أولا الى « النقطة » التى منها نبدأ الشوط ، وليست الا فى أن نرجع الى الحق والله هو الحق المبين .

ومن غريب ما رأيت فى « أزمة الضمير » أن بعض الناس يوجهم ضميرهم توجيها هو أقسى ما يمكن أن يكون شدة وخطأ ، وهو أقسى ما يمكن أن يكون فظاعة وغلظة ، وليس وجه الغرابة فى شدته ، أو فى خطئه ، ولا فى فظاعته أو غلظته ، وإنما وجه الغرابة فى أن يوجههم ضميرهم هذا التوجيه الوحشى على أنه « دين » ولو صحت هذه الروايات التى سأنقل منها مثلا لكانت هى المثل الأول وهى المثل الأخير لأزمة الضمير .

فى مكتبة سماحة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين فى مصر الجديدة اطلعت على كتاب اسمه « صراخ البرى فى بوق الحرية والذبائح التلمودية

بقلم حبيب افندى فارس، فيه مايفيد أن « اليهود » من فروضهم «الدينية» أن يعجنوا فطيراً لعيد الفصح بدم « بشر » -غير يهودى- ، وهذا الفطير لا يعطى منه عاده إلا للأنقيا من اليهود . والكتاب يَروى حكايات كثيرة عن هذه « الدبائح » منها ذبيحة اعترف فيها أحد الذابحين بعد ان أُمِّن على أن يكون « شاهد ملك » وكان أن استُجوب الذابحون فى يوم الجمعة ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٠ بحضرة صاحب الدوله « شريف باشا وقنصل دولة فرنسا » وهنا ننقل بعض فقرات من أقوال بعض المعترفين « ص ١٥٧ »

س — لماذا قتلتم ... ؟

ج — لقد قتلناه لأجل الحصول على دمه ، وبعد أن وضعنا الدم فى « قنانى » أرسلناه إلى .... وكنا نصنع ذلك اعتقاداً بأن الدم ضرورى لإتمام فروض ديانتنا . وفى ص ١٦٤ مايأتى :

س — قلت : بأنهم أخذوا الدم لأجل الفطير مع ان الدم عند اليهود محرم ورجس فكيف هذا التناقض ؟ فسر لنا ذلك ؟

ج — بموجب « التلمود » دَمَان مقبولان عنده تعالى : دم الفصح ، ودم الطهور .

ولعل مثل هذا المثل هو الذى جعل « غوستاف لوبون [1] » يقول :

---

(١) طبيب واجتماعى فرنسى . وقف نفسه على خدمة العلم وتقرير حقائقه حتى تجاوز الثمانين من سنى حياته . ولد عام ١٨٤١ . وفى حرب السبعين تولى رئاسة أطباء فرقة من فرق النقالات العسكرية المتحركة . ومن أهم مؤلفاته : حضارة العرب « عربه محمد بك مسعود » وحضارة الهند . وآثار الهند . ورحلة إلى جبال تتراس =

إن العاطفة الدينية لاتتمشى دائماً مع الشعور الخلقي ، فالرجل الجم التقى لا يكون أبداً أكثر الناس إحسانا ، بل ربما كان كثير الإساءة أحيانا ، والشعب الكثير التقى هو الأقل تسامحا وتساهلا فلا يحجم عن إتيان أشد أنواع التعذيب . وما كانت محكمة التفتيش إلا من عمل أشد الشعوب الأوربية تدينا . (١)

ويظهر أنى مضطر هنا أيضا إلى أن أقول كما قلت من قبل : « بل الرجل الجم التقى يكون أبدا أكثر الناس إحسانا » لأن الجم التقى يؤمن بأن الله معه دائماً . وإذا كنت تستحى من أن تفعل « موبقة » وإنسان معك فكيف إذا كنت تؤمن بأن « الله » هو الذى معك ؟ ! !

* * *

يقول « فولتير » ذلك الفرنسى الثائر : « ليس الظلم فى أن يوجد ، وإنما الظلم فى الشعور به » وعلى هذا أذكر مثلا لشعور بظلم استولى علينا ساعات من نهار من جراء « ضمير » بل لانزال نشعر به ، وقد وقع و « فات »

=ورحلة إلى جبال تيبال والثورة الفرنسية وروح الثورات . والنتائج الاولى للحرب . والتعاليم النفسية للحرب الأوربية « عربه أميـــل زيدان » والإنسان والجماعات . وسر تطور الأمم « عربه فتحى زغلول » . وروح الاجتماع وروح الإشتراكية . وروح السياسية . وجوامع الكلم « عربها أيضاً فتحى زغلول » وروح التربية « عربه الدكتور طه حسين . وله عدا ذلك إبحاث ومذكرات كثيرة . » ترى أسماءها فى مقدمة كتاب الحضارات الأولى .

(١) ص ٦٠ مقدمة الحضارات الأولى

أمس أرسلت ولدى «عصام» إلى «المطبعة» بأصلٍ من وريقات هذا الكتاب، وكان الوقت ظهراً أو يقرب على أن يُدرك «الغذاء» فى المنزل فمضى وقت «الغذاء» ويعده بساعة وساعات، فانشغلنا وانشغلنا حتى مكثت «والدته» لا تعرف إلا أن تدور، وتدور من النافذة إلى الباب، ومن الباب إلى النافذة حتى كادت تجن ونجن معها، وأخيراً دخل علينا «عصام» ومعه «عسكرى» فحمدنا الله على أن حضر، ولم نحمد لعصام هذا الحدث الذى جاء به يشبه أن يكون مقبوضاً عليه.

خيراً. ما هذا؟ أين كنت؟ فأعطانا «العسكرى» «محضراً» وطلب أن يستلم هذا «العصام» «شيخ حارة» وفى الوقت نفسه سلمنى «عصام» «وريقاتى» لم تسلم بعد إلى المطبعة. فأعرضت عنها إلى «المحضر» وإذا فيه ما يأتى:

س — لماذا كنت تركب على سلم «الترام».

ج — استعداداً لدخول «العربة» وقفل المحضر. دعنا من هذا، وأين كنت هذه الساعات الطوال؟ كنت محجوزاً فى «القسم» ولماذا لم تخبرنا «تليفونياً» بالمسأله؟ أردت أن أخبركم بالحادث فمنعونى. والتفت إلى «العسكرى» فسألته: وماذا تريد «يا عم»؟ فقال: أريد أن يضمنه شيخ حارة. فقلت: ولماذا شيخ حارة؟ أنا «والده» أستلمه. فرفض. فأخذ أخوه يبحث عن شيخ حارة فلم يجد فكتبت خطاباً منى إلى السيد المأمور أخبره بأنى نظراً لعدم وجود شيخ «حارة» أضمن «ابنى» فذهب العسكرى ثم عاد إلينا ثانياً يخبرنا بأن هذا الخطاب لا قيمة له ولا بد من أن يضمن

« شيخ حارة » وأخيراً ذهبوا يبحثون له عن شيخ حارة . حتى عثروا عليه . فطلب « نصف ريال » وإلا فلا ضمانة . وعلى الرغم من أن مجلس الدولة أفتى بأن هذا « النصف ريال » يعتبر رشوة . أعطوه . حتى يخلصوا من هذه « الدوشة » .

كلما أتصور حجز « الولد » فى القسم هذه المدة الطويلة . وكلما أتصور منعه من أن يتصل بنا « بالتليفون » وكلما أتصور إحضاره من قسم بعيد عن قسم مصر الجديدة شبه مقبوض عليه ، وكلما أتصور أن إمضائى وأنا « والده » لا يساوى إمضاء شيخ « حارة » كلما أتصور هذه الأشياء يزداد إيمانى بأن اصلاح « مركز التوجيه فى الإنسان » — الضمير — هو الأساس الأول ، وهو الأساس الأخير لكل اصلاح : «إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ » « الرعد ١١ » .

ومثل آخر لا زلت أشعر بأثر ماكان فيه من سوء توجيه حتى الساعة :

استدعيت مرة إلى مكتب فضيلة وكيل شيخ الجامع الأزهر الشيخ «محمد عبداللطيف دراز» فسئلت : هل أنت قدمت شكوى ضد .. ؟ أنا ؟!!!

نعم . أنت . فقلت مَبْهُوتا : لا . لم يحصل مطلقاً . وما أشد دهشتى وعجبى حينما ووجهت بورقة فيها اتهامات من « نار » بل أقسى من النار ضد ... ومذيلة بأمضائى . استغفر الله بل باسمى استغلة « ندل » ولا أدرى لماذا ؟ . . . ووجه العجب الممض أنه من . . . وكلما أتصور أيضا هذا الحادث يزداد إيمانى بأن صلاح الأمة فى إصلاح « مركز التوجيه » عند أفرادها ، وهو « الضمير » لا فى أى شىء آخر فهو الأساس .

لكن هل يسلم صاحب مثل هذا الضمير سلامة مطلقة من تأنيب ضميره ؟

يقول « وليم جيمس » فى مؤلفه « العقل والدين » ليس هناك من اليقين الذى لا يعتريه الشك إلا حقيقة واحدة ، وهى تلك الحقيقة التى لم تقدر فلسفة الشك نفسها أن تهدمها . ألا وهى « وجود ظاهرة الشعور »[1]

فما دام الشعور موجوداً فلا يمكن أن يسلم إنسان من تأنيب ضميره ، وإن اختلف قوة وضعفا تبعا لدرجة الشعور عند الإنسان . أما إذا أصيب الإنسان فى « شعوره » فمثله كمن يصاب فى « عقله » يسقط من الحساب .

هذه درجة من درجات « الضمير ولنصطلح على تسميته بالضمير الأسفل » .

* * *

٢ — ويقابل هذا الضمير « الأسفل » يقابله الضمير « الأعلى » وهذا الضمير لا يوجه صاحبه إلا إلى ما يرى هو أنه خير سواء وافق العرف والتقاليد أم خالف العرف والتقاليد وسواء وافق القانون أم لم يوافق القانون وسواء رضى الناس أم سخطو. هذا هو ضمير الأنبياء ، والرسل ، وضمير كبار المصلحين الذين لا يثنيهم تهديد ، أو وعيد عما يرون تقريره لصالح الإنسانية مهما نالهم فى سبيل ذلك من عنت واضطهاد وتعذيب أو تشريد. وخير مثال لهذا الضمير هو محمد بن عبد الله انظر إليه يقول لعمه وقد تألب العرب عليه : — والله يا عم لو وضعه الشمس فى يمينى ، والقمر

(١) ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٧ « طبعة دار إحياء الكتب العربية لعيسى الباب الحلبى وشركاه » .

فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله .

٣ — والدرجة الثالثة من درجات الضمير درجة وسط بين « الأسفل » و « الأعلى » ، وهى درجة الذين يرون الخير فى طاعة القانون أيا كان : « وضعياً » أم « دينيا » أم « أخلاقيا » ، وترى صاحب مثل هذا الضمير لايسمح لنفسه على الاطلاق أن يخرج على القانون .

وإذا كنت ترى صاحب « الضمير » « الأعلى » فى ثورة على الأوضاع التى لا يرى فيها للانسانية خيراً أو التى يرى أنها أصبحت لاتلائم روح عصره ولا تتصل بأصل من مقومات وطنه إذا كان صاحب « الضمير » « الأعلى » من شأنه ذلك لأنه يسبق زمنه فان صاحب الضمير « الوسط » تراه فى « طمأنينة » يعيش بها ، أو يطلب أن يعيش بها « هادئا » « آمنا » « سالما » .

وإذا كانت مرتبة الضمير « الأعلى » هى مرتبة « زعماء الإصلاح » . و « الفلاسفة » ، فأنك لترى كثيراً من « الأدعياء » يخرجون على ما ألف الناس من « عرف » و « عادات » و « تقاليد » يخرجون عليها لغير منفعة ضرورية يحتملها الناس ، وإنما يخرجون ليتفلسفوا بهذا الخروج على قاعدة « خالف تعرف » .

بقى علينا فى هذا الباب قبل أن ننظر إلى الإنسان المثالى ، أو إلى المثل الأعلى الذى يهدف إليه من يريد أن يكون مثاليا . بقى علينا أن نتساءل :

هل ضمير السياسى ينبغى أن يكون مثل ضمير الفرد ؟ على معنى أنا إذا طلبنا من الفرد ألا يحيد مطلقاً عن « الصـــدق » فى معاملاته

مع غيره من الأفراد فهل نطالب من السياسى الذى يدير دفة شئون بلاده مع دول « تمكر » به هل نطالب منه هو الآخر ألا يحيد عن « الصدق » وأن يعامل « الدول » كما يعامل « الأفراد » ؟

يقول الكتاب العزيز : « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » « النساء ٦٩ » ويقول صلوات الله عليه : « ان المؤمن كيس فطن حذر » رواه القضاعى عن أنس « الفتح الكبير ح ٣ ص ٢٥١ » وقيل لعمر رضى الله عنه : فلان لا يعرف الشر قال : ذلك أحرى أن يقع فيه . ومعنى كل هذا أنه ينبغى للإنسان ألا يكون « ساذجا » بل ينبغى أن يكون دائماً أبداً على « حذر » من خداع الخداعين ، ومكر الماكرين ، وكيد الكائدين . واذا كان « الحذر » مطلوبا فانه للسياسى أشد طلبا .

اننى أعتقد أن من عوامل قيام دولة « اسرائيل » « سلامة طوية » العرب ، و « خبث » اليهود ومن كان يظاهرهم ضد العرب .

سمعت بنفسى من سماحة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين يقول : ان اليهود ومن يظاهرهم رأوا فيما بينهم أن أسلم طريقة لقيام « اسرائيل » أن تدخل الدول العربية الحرب ضد اليهود حتى لا تعيش اسرائيل عمرها فى حرب عصابات مع العرب ، فأوعزوا الى الدول العربية بأن تدخل الحرب ثم تألبوا عليها وكادوا لها بمسألة « الهدنة » المشئومة .

انظر كيف « مكروا » بالعرب ، ولو كان العرب على « حذر » من « خبث » اليهود ، ما استطاع اليهود ولا غير اليهود أن يقيموا لهم دولة فى « قلب » البلاد العربية . لذلك ينبغى لمن يتصدى للأشتغال بالسياسة

أن يكون أشد حذرا من اليهود . و « أصبر » من الانجليز .

هذا وان تفاوت الناس فى الحسن « الباطن » كتفاوتهم فى الحسن « الظاهر » ولن يسلم الحسن المطلق الا على الندور . وليست النجاة موقوفة على الكمال البالغ ، لكن على أن يكون الميل الى الحسن أكثر .

وخير ما أختم به هذا الباب قصيدة الإمام « الغزالى » « الهائيه » فى وصف « النفس » ، وتأنيب « الضمير » قال :

مابال نفسى تُطيل شكواها ... الى الورى وهى ترتجى الله
يُفسد اخلاصَها شكايتُها ... ذاك الذى راعها وأرداها
لو أنها من مليكها اقتربت ... وأخلصت وُدّها لأدناها
لكنها آثرت بريتَه ... عليه جهلا به فأقصاها
أفقرها الورى [1] ولو لجأت ... اليه من دونهم لأغناها
تشكو الى خلقه كأنهمُ ... قد ملكوا نفعها وضرّاها [2]
لو فوضت أمرها لخالقها ... وصحت صدقها وتُكلاها [3]
عوضها من همومها فرجا ... ولم يَدَعها بطول غمّاها
تسخطه فى رضا بريته ... تبّاً لها ما أجلّ بلواها

---

(١) الخلق
(٢) بالفتح مصدر وبالضم إسم
(٣) التكلان : إسم من التوكل وهو إظهار العجز .

لو أنها للعباد مسخطة ... مرضية ربها لارضاها
لدىّ نفس أحب أنعتها ... لتعرفوا نعتها وأسماها
فاسمع صفاتى لها لعلك أن ... تفهم ذا اللب سرّ معناها
تسعى الى اللهو وهو غايتها ... يا ويلها ما أضرّ مسعاها
أزجرها وهى لى مخالفة ... كأننى لست من أوداها
تنظر فى عيب غيرها سفها ... وكم عيوبٍ لها فتنساها
قد ظلمتنى بسوء عشرتها ... ولم تدع لى تقوى ولا جاها
كثيرة اللغو فى مجالسها ... قليلة الذكر فى مصلاّها
قليلة الشكر عند نعمتها ... ضعيفة الصبر عند بلواها
بطيئة السعى فى مصالحها ... سريعة الجرى فى بلاياها
كثيرة المطل فى مواعدها ... كذوبة فى جميع دعواها
بصيرة بالهوى وفتنته ... عمية عن أمور أخراها
نشيطة عند وقت لذتها ... كاسلة عند وقت ذكراها
نؤومة العين عن عبادة مَنْ ... أتقن تصويرها فسوّاها
كثيرة الأمن عند صحتها ... عظيمة الخوف عند ضراها
حليفة الكبر والرياء فقد ... أفسدها كبرها وأطغاها
عظيمة المدح والثناء لمن ... يرفع مقدارها ومثواها
مطيله الذم بالقبيح لمن ... عرّفها قدرها وطغياها
تفرح فى أكلها ومشربها ... وحُبّها للمنام أغراها
ذاكرة للورى مساوئهم ... ناسية ما جناه كفراها

كم بين نفسى وبين نفس فتى ... طهرها بالتقى ونقاها
علمها رشدها وبصّرها ... ثم بقوت الحلال غذّاها
أقامها فى الدجى على قدم ... فانهملت بالدموع عيناها
إذا اشتهت شهوة يعودها ... بخوف معبودها فسلاّها
وراضها بالصيام فانقمعت ... بالرغم عن غيها ومغراها
ذاكرة للإله شاكرة ... مخلصة سرها ونجواها
لله نفس امرىء موفقة ... آوت إلى ربها فآواها
شرفها ربُّها وكرمها ... ومن مياه اليقين أرواها
سمت إليه بحسن فكرتها ... ثم صافى ودادها فصفاها
تلك التى إن دعت لحاجتها ... أجابها مسرعا ولباها
إن بليت بالخطوب صبرها ... أو سألت ما يريد أعطاها
ليست كنفس لدىّ عاصية ... آمُرُها جاهداً وأنهاها
وهى لأمر الإله عاصية ... ويلى لما قد جنت وويلاها
كيف إلى ربها تنوب وقد ... ذلت لشيطانها فأغراها
فكلما قلت نفس ازدجرى ... وراقبى فى أمورك الله
صُمَّت عن الحق وهى سامعة ... كأننى ما أريد إياها
لو علمت بعض ما له خلقت ... أحزنها علمها وأبكاها
لو تعرف اللهَ حق معرفة ... لصححت برها وتقواها
لكنها جهلها بخالقها ... أغفلها رشدها وألهاها
ياويح نفسى والويح حقّ لها ... إن صدها ربها وأرداها

تغرها لذة الحياة وما تدرى إلى ما يكون عقباها
قد ضقت ذرعا بها وأحبسها لم أك أعصى الإله لولاها
إن أنا حاولت طاعة فترت وأظهرت وحشة واكراها
صرتُ مع النفس فى محاربة تأمرنى بالهوى وأنهاها
نحن كقرنين فى معاركة أدرّع الصبر عند لقياها
وهى بجند الهوى مبارزتى وأى صبر يطيق هيجاها
إن جبنت بالقتال شجّعها أو ضعفت فى اللقاء قوّاها
أصرعها تارة وتصرعنى لكن لها السبقُ حين ألقاها
أحبها وهى لى معادية كأننى لست من أحبّاها
عدوة لا أطيق أبغضُها يا ليتنى أستطيع أنساها
سابحة فى بحار فتنتها جاثية فى سدول ظلماها
أحسبها إن أبت موافقتى خاسرة دينها ودنياها
يا رب عجل لها بتوبتها واغسل بماء التقى خطاياها
إن تك يا سيدى معذبها من ذا الذى يُرتجى لرحماها
فالطف بها واغتفر خطيئتها إنك خلاّقها ومولاها